اللون الأبيض

فُتح باب الحجز الانفرادي، فركت السجينة ذات البدلة الحمراء عينيها تتأمل القادم، لابد أن اللحظة قد حانت، كانت مستعدة للموت، رأت سيدة ترتدي ثوباً أبيض وطرحة بيضاء على رأسها، تأملتها، عرفتها على الفور، همست لنفسها: إنها أمي.. نعم هي.

عرفت أنهم حققوا لها رجاءها الأخير، هذا الرجاء أن ترى أمها قبل أن تغادر الدنيا بلا رجعة، دخلت السيدة، أقبلت الفتاة عليها تريد أن تُقبل يدها، سحبت السيدة يدها سريعاً، نظرت نحو الفتاة بوجه جامد: لماذا طلبت لقائي ؟!

ردت الفتاة سريعاً دون تفكير: لأنك أمي.. تقدرين مشاعري.. تعرفين أنني رغم كل شيء أحبك.

ـ ماذا تريدين ؟

ـ أريد رضاك في ساعاتي الأخيرة.. لا أطلب أكثر من هذا الرضا.. لعله يكون شفاعة لي بعد الموت.

ـ وكيف أمنحك الرضا ؟ كيف أدعي كذباً أنني راضية عنك؟

ارتمت الفتاة تحت أقدامها متوسلة: أرجوك.. أحتاج إلى هذا الكذب الآن.. أحتاج إلى طوق نجاة.

ـ لا أعتقد أنك ستحتاجين إلى طوق واحد فقط.

ـ لا يهم.. يكفي أنك جئت.. أراك الآن أمامي.. ألمح الطهر كله في ثوبك الأبيض.. يكفي أن تكون صورتك آخر صورة أراها قبل الموت.

ـ أنت من جلب الموت لنفسه!

ـ لقد كنت ميتة بالفعل منذ زمن.. لم أعرف طعم الحب منذ غادرت بيتك يا أمي.. في أحضانك كان الله يشاركني كل حب طاهر نظيف.. كل حب يقربني منه ومنكم.. حب الله يمس الروح ويشغل القلب.. شعرت بأن حب الله يغادر قلبي عندما استبدلت بحبه حب البشر.. هؤلاء الذين لا يمتون لي بأي صلة.. لم يجمعني بهم إلا حب الدنيا بلهوها وشهواتها.. غادرني حب الله فاقتربت من الشيطان.. احتواني.. برر أخطائي وسقطاتي.

شعرت بأن البيت خانق.. هربت بحثاً عن الهواء ووجدته.. كان هواءً فاسداً ولكنني أدمنته.. لم أمنع نفسي من أي شيء.. عشت الحياة بكل متعها دون توقف ودون مانع، منحت كل شيء..

راقصت الشيطان بل عشقته . . كان الرجل الذي تركت البيت من أجله شيطاناً . . تركته يحركني كيف يشاء . . كنت أرى الدنيا في خطواته . . كل يوم حب جديد .

عطاء بلا حدود . . متعة لا تعرف التوقف . . لم يكتف بأن أكون له وحده . . منحني لكل من أرادني . . وأنا منحت نفسي لكل من أردته . . صعدت وفي الأعلى رقصت . . ففقدت توازني سقطت . . وعندما سقطت حطمت نفسي وكل من حولي . . قتلت الرجل الذي دفعني من أعلى . . الشيطان الذي كان يحركني . . قتلته حتى أعثر على نفسي . . كان لابد أن يرحل . وأن أتأكد من رحيله . . لا أريد أن أغادر وأترك له الدنيا . . فلقد كان أول خطيئة . . أول خطواتي نحو الهاوية . . ما زلت أتذكر جيداً المرة الأولى . . نحن لا ننسى ـ أبداً ـ تفاصيل المرة الأولى .

أمي . . لم أر اللون الأبيض إلا عليك . . لم ألمحه إلا الآن . . امنحيني جزءاً من هذا اللون حتى أرحل به . . أرجوك يا أمي . . أدرك أنني لن أتحرر حتى يغادرني الماضي . . حتى تغادرني ذكريات المرة الأولى .

نهضت الفتاة، اقتربت من الأم، لمست ثوبها الأبيض، منحتها

السيدة يدها، قبلتها الفتاة بشدة وهي تبكي: أعرف مدى قسوة كلامي عليك يا أمي.. أسمع دقات قلبك المذعورة.. ولكن الندم قاسٍ للغاية.. قسوته بالغة.. أقسى بكثير من الكلمات.

ضمتها الأم إلى صدرها، همست بألم: الندم توبة.

همست الفتاة: وهل هناك وقت للتوبة؟

غادرت الأم باكية، وفي الصباح نُفذ حكم الإعدام.